المعتقلات الفرنسية في منطقة توات:
معتقل حاسي صاكة (1958- 1959) أنموذجا

أ. عبد الرحمان بعثمان
جامعة بشار

طبعت ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 بطابع الشمولية حيث لم تمر ثلاثة أعوام حتى عمت الجزائر بجهاتها الأربع. ولم تكن منطقة توات (الطاهري، م. 2010: 61) بالجنوب الغربي الجزائري بمعزل عن المد الثوري الذي عم البلاد منذ مؤتمر الصومام سنة 1956، إذ شاركت هذه المنطقة في الدعم اللوجستي للثورة في الشمال (خصوصا بعد تكوين جبهة مالي) (تواتي، د، وآخرون. 2004: 44)، وبالعمل الثوري بعد سلسلة المعارك التي خاضها الثوار في العرق الغربي الكبيرمما جعل المنطقة تحت طائلة المشاريع الفرنسية الهادفة إلى إجهاض العمل الثوري، حيث عمدت إلى إنشاء المناطق المحرمة والمحتشدات المعتقلات والتي كانت أهم أسلوب استعملته السلطات الفرنسية لمحاولة خنق الثورة في المنطقة حيث نشرت معتقلاتها في كافة جهات توات كتيميمون وأدرار ورقان.

ولعل أهم هذه المعتقلات هو معتقل حاسي صاكة الذي كان ردة فعل مباشرة على معركة حاسي صاكة التي جسدت الحس الثوري لدى سكان منطقة توات.

أسباب إنشاء المعتقل "معركة" حاسي صاكة:

تعد معركة حاسي صاكة بالعرق الكبير يوم 15 أكتوبر 1957 من أهم المعارك الخالدة في تاريخ المنطقة الثوري خاصة وأنها مثلت ضربة غير متوقعة للمستعمر الفرنسي، حيث أقدمت كتيبة المهارية (تواتي، د،

مقلاتي، ع؛ رموم، م. 2004: 44) التابعة للجيش لفرنسي إلى التمرد وقتل الكثير من الجنود الفرنسيين وغنمت الكثير من الأسلحة والذخيرة، قاد هذه المعركة المجاهد الشهيد الهاشمي أمحمد وبيدة محمد العطشان الذين اجتمعوا بكتيبة المهارية يوم 13 أكتوبر 1957 وأبلغوا بأمرية قيادة الولاية الخامسة القاضية بالتمرد والانضمام الى جيش التحرير الوطني. (تواتي، د، مقلاتي، ع، رموم، م. 2004 : 44).

وجاء سير أحداث المعركة وفق ما حدده قادة الثوار بقتل الفرنسيين الثمانية المتواجدين داخل الكتيبة وغنم أسلحتهم ومن ثم الانسحاب داخل العرق الكبير، وغنم المجاهدون أكثر من 250 جملا و65 بندقية - 05 ب م – 02 ف م – 02 ب أ - 03 مذياع –10.000 خرطوشة وأكثر من 15 منظارا (ختير، ص. 2011 : 103).

ولما وصل خبر الانتفاضة إلى مركز القيادة في تيميمون من طرف بعض سائقي الشاحنات أنهم شاهدوا جثثا لبعض الأوربيين على قارعة الطريق بناحية حاسي صاكة، وتأكدت السلطات الفرنسية أن الاتصال بالراديو اللاسلكي لم يتم يوم 15 كما هو معتاد كل يوم، اتصل النقيب صوايي Souaie بالرائد فانتينول Fantinaul الحاكم الإداري لأدرار ليقوم بدوره إخبار – بإخبار- قيادته بالتمرد الذي حدث بحاسي صاكة .(ختير، ص. 2011: 103).

وقد أحدث نبأ الانتفاضة ضجة كبيرة في وسط هيئة أركان جيش الاحتلال مما جعلها ترسل بطريقة مستعجلة الجنرال دي كرافكار Decrevecoeur من الناحية العاشرة في كولومب بشار يوم 1957/10/19م رفقة الرائد بير بوشي دوفيرنيز Pierre Bouchis De Fureins لدراسة

الوضعية، وفي نفس الوقت التنسيق والتشاور ووضع خطة مع فانتينول Fantinaul وميلكو MILKO لإيجاد المهارية المتمردين ومنع تقدمهم، وقد أعطيت لهم كل الصلاحيات للحصول على النتائج الإيجابية، وقد عبر عن ذلك بقوله: (سنشرع دون تأخير بعملية جوية وعنيفة شمال وشمال شرق وشمال غرب تيميمون في مربع 200 كلم2 في كل جهة). (تواتي، د، مقلاتي، ع، رموم، ع. 2004 : 45).

استخدمت القوات الفرنسية كل الوسائل للحصول على نتائج ايجابية في ما يخص الفارين بعد فشل العمل العسكري و التفتيش لجأت إلى الحرب النفسية ، معتمدة على المناشير الدعائية(بلحمد ، أ.2008، 56) والتي تتضمن وصف إجرامي للمهارية . كما أوضحت مطاردة فرنسا لهؤلاء المجرمين أحصت المناشير مقتل عشرة متمردين بحاسي الجديد الشرقي أما الباقون فاكتفوا بعبارة يد اللّه فوقهم مع استعمال لفظ القصاص الذي نص عليه الدين الإسلامي من أجل كسب عاطفة سكان الاقليم خاطبت هذه المناشير أهالي تيميمون تينركوك بعدم الاستماع لأكاذيب العصاة المتمردين وعليهم بسماع كلمة الحق وصوت الشرف النابع من الأمة الفرنسية التي تمنح الطمأنينة والسعادة لأبناء هذا الوطن.(بن يعقوب، ع. 2007: 35).

وهكذا فإن انتفاضة حاسي صاكة تعد نتاج العمل السياسي المنظم بمنطقة العرق الغربي الكبير، لقد فتحت الباب على مصراعيه لمشاركة أبناء الإقليم في الثورة التحريرية وعربون وفاء لنجاح العمل العسكري في المنطقة برمتها، وتجسيد مبدأ شمولية الثورة وشعبيتها مع اعتماد الوحدة الترابية.

إنشاء المعتقل:

في أعقاب معركة حاسي صاكة قامت السلطات الفرنسية بإنشاء المعتقل جنوب غرب منطقة تيميمون، من أجل الانتقام لمقتل جنودها وللتحقيق في التمرد الحاصل في صفوف كتيبة المهاري، وعلى هذا الأساس تم انشاء هذا المعتقل حيث أعلنت أحواز حاسي صاكة منطقة محرمة وشنت حملة تمشيط واسعة في المنطقة للبحث عن مرتكبي ذلك العمل الثوري فأقدمت على توقيف جميع المتهمين وعائلاتهم، وأقيم هذا المعتقل في منطقة صحراوية خالية من السكان أقرب تجمع سكني لها هي قرية تينركوك التي تبعد 85 كلم.

اختار الفرنسيون المكان الذي قتل فيه الجنود الفرنسيين عند حاسي صاكة، كان عبارة 275 خيمة محاطة بالأسلاك الشائكة مدعومة بحراسات وإنارة كهربائية وحشدت فيه عائلات بأكملها خاصة تلك التي ينتمي إليها المهاري الفارين. (شولي، أ. 14 مارس 2008: أجدير الغربي).

المعتقلون وواقعهم داخل المعتقل:

شنت السلطات في أعقاب معركة حاسي صاكة العديد من أفراد عائلات المشتبهين حيث زج بأعراش بأكملها في هذا المعتقل فيما نقل البعض منهم الى سجون قارة في القنادسة ووهران والبرواقية، أما المعتقلون فكانوا من أجدير الغربي ـ طلمين ـ تاعربين ـ تبو أولاد عيسى.

بعد شن حملات الاعتقال من طرف المظليين الفرنسيين سيق المتهمون إلى المعتقل قسرا حيث تروي إحدى المعتقلات أن الفرنسيين

قرروا قتل كل من يحاول الفرار (المير، ش. 14 مارس 2008 : أجدير الغربي).واستعان العدو بمترجمين لتسهيل التعامل مع السكان .

قام الفرنسيون بتعذيب الرجال داخل المعتقل وتعليقهم في جذوع النخل بعد قتل حيواناتهم وردم آبارهم، وكان الناس في هذا المعتقل المفتوح حفاة عراة في ظروف مزرية، وكانت أنماط التعذيب في المعتقل تختلف حيث كان يستجوب البعض باستعمال الأسلاك المكهربة إضافة إلى الأعمال الشاقة كما تروي زوجة الشهيد قدور بليتيم (عيشاوي خ. 29 يناير 2008 : زاوية الدباغ).

وتذكر المجاهد ليتيم الكاملة أنه تم تعذيبها وجرها من رجلها مرار بعد اتهامها يتموين المجاهدين كان المعتقل تحت قيادة النقيب صواييه الذي أوكلت مهمة إدارة المعتقل المؤقت حيث أشرف على تنظيم خيم المعتقل(بلحمد ، أ . 2008 : 63).

عاش المعتقلون ظروفا جد سيئة داخل المعتقل فلم تكن الخيم المنصوبة لتحمي ساكنيها من حر الصيف وبرد الشتاءوالتي كانت تخضع لتفتيش يومي دقيق، ويحصى المعتقلون يوميا وكان ينقل كل مخل بالنظام إلى سجون تيميمون وقاعدة رقان العسكرية.

أما الإعاشة داخل المعتقل فكانت عبارة تمر وخبز وحليب ورفيس وغيرها من الوجبات الباردة، كما منعت السلطات صلاة الجماعة حيث كانت تؤدى الصلاة بصفة فردية واستمر التضييق على النزلاء في جميع العبادات كالصوم والاحتفال بالأعياد (بلحمد ، أ ، 2008: 66).

كانت أعمال التعذيب والاستنطاق تتم في مكان يسمى حاسي فاطنة الذي يبعد بمسافة قصيرة عن المعتقل، حيث يذكر أحد شهود

العيان أجرادي أحمد أن مدير المعتقل حول الكثير منهم الى منطقة حاسي فاطنة وأمر الجنود بحرقهم لكن قدوم الجنرال بيجار حال دون ذلك حيت قال لصواييه لماذا تريد احراق الشعب ؟- قال: قتلوا الجنود الفرنسيين فمنعه بيجار وأمره بتعذيبهم فقط.(بضياف،ف. 29 يناير 2008: زاوية الدباغ)

المعتقلون والثورة:

رغم الظروف القاسية فإن النزلاء لم يقطعوا صلتهم بالثورة حيث كان الثوار يستخبرون ظروف اعتقال أسرهم في المعتقل وكانت أخبار الثورة تتناقل بين المعتقلين خاصة الهامة منها كأخبار معركة تاسلغة يوم 6 نوفمبر 1957 ومعركة حاسي غمبو 21 نوفمبر حيث استشهد عدد كبير من المجاهدين وكان الهدف من تجنب إضعاف شعور المواطنين اتجاه الثورة ولتفنيد ادعاءات الفرنسيين حول تمكن جيشهم من إخماد التمرد نهائيا. وبلغ النزلاء في المعتقل درجة عالية من الوعي السياسي والثوري حتى أن أخبار تحركات الثوار كانت تتداولها النسوة المعتقلات (المير ،م. 14 مارس 2008: أجدير الغربي).

آثار المعتقل على النزلاء:

كان للاعتقال انعكاسات كبيرة على النزلاء حيث ضرب السكان في أهم مصدر لقوتهم وهي قطعان أغنامهم التي قضى عليها الفرنسيون في إطار سياسة الحصار الغذائي الذي كانت تحاول فرضه على الثوار إذ تروي السيدة حدة بوسعيد أن الجنود قتلوا قطعانا بأسرها (بوسعيد ،ح. 14 مارس 2008، أجدير الغربي).

زيادة على انعدام الغذاء كان النزلاء يعانون العراء حيث عدموا من ألبسة تستر عورتهم وتقيهم البرد والحر وكان النزلاء يطالبون ادارة المعتقل بتوفير الغذاء واللباس خاصة اثناء الزيارات الاستطلاعية التي يقوم بها الجنرالات الفرنسيين، حيث أمر أحد الجنرالات بتحسين ظروف الاعتقال وهو ما حصل حيث أرسلت طائرات محملة بالمواد الغذائية غير أن الكثير ممن تناولوا تلك الأطعمة أصيبوا بتسمم حاد نتيجة فساد الأغذية (بلحمد، أ. 2008: 72 وما بعدها).

ونتج عن انعدام الرعاية الصحية كثرة الأمراض وموت الكثير من المعتقلين خاصة بالحمى التي كانت المرض الأكثر فتكا بالنزلاء، كما كان انتشار الأوساخ وعدم وجود الحمامات سببا في ظهور الأمراض الجلدية والحصبة والقمل والربو وترهل العظام حيث تحول الكثير من النزلاء إلى معاقين بسبب أمراض العظام.كما ظهرت حالات خطيرة من أمراض السل الذي كان يفتك بالمعتقلين بسبب انتشار العدوى فكثرت الوفيات بين النزلاء (بلحمد، أ. 2008: 72 وما بعدها).

الآثار النفسية:

نتج عن الواقع المرير داخل المعتقل تداعيات نفسية على المعتقلين، حيث كان التعذيب والإرهاب يخلف آثارا نفسية سيئة، ومن صور هذا أن الفرنسيين كانوا يهددون المعتقلين بالقتل بوضع ماسورات السلاح على رؤوسهم إضافة إلى زئير الطائرات مما أدى إلى إصابة بعضهم بنوبات قلق حادة نتيجة الخوف وبرز ذلك من خلال الأدب الشعبي حيث قال أحد النزلاء:

"نهار الدم يتورخ يا إخوان

والطيارات التير برصاص وشعل فيه النيران
ضربت وشعلت لجمال سنتين
حامل الماء للشعب والثوار
في حاسي صاكة وحاسي فاطنة
تم تحبسوا أطفال ورجال ونساء
أشارات منصبة
والتير بالرفال"

ونظم السيد مولاي الميرقصيدة قال فيها:

"حبسونا بإلهي عند الجبانة ..... وسبع أيام ساهر النوم علينا
فرخ الموتور من زهير دوانه ..... قادوا شبان كالجمل المقيودة
دخلو السوق ماهداوا القرينة ....عيد عليا يا شيخ وين لي فيا
من حاسي موسى انقلبوا لفرسيقة ..... وحاسي صاكة قالوا الناس ماتوا فيه"

غلق المعتقل :

في سنة 1959 جاء القرار بغلق المعتقل لما رأت السلطات الفرنسية التضيق على السكان لم ينفع شيئا أمام زيادة الدعم للتوار خصوصا مع بعد تعدد الاشتباكات مع جيش التحرير على المنطقة الممتدة بين الساورة والعرق الكبير حيث خسرت السلطات الفرنسية الكثير جنودها (عبد العزيز، أ. (د.ت): 126)، كما أن المعتقل أستنزف الكثير من الأموال التي كانت تصرف على المعتقلين وكثير من التموينات العسكرية مقابل تزايد هجمات جيش التحرير.

على الرغم من شح المعلومات حول هذا المعتقل المغمور، إلا إننا نجد في الشهادات الشفوية الكثير مما يدل على الحالة المزرية التي عانى منها المعتقلون في حاسي صاكة، خاصة وأن فرنسا اختارت موقعا غائرا في أعماق العرق الغربي الكبير؛ حيث تنعدم مظاهر الحياة.

لقد أثرت حياة الاعتقال جسديا ومعنويا على النزلاء الذين يحتفظون إلى الآن بذكريات مؤلمة عن هذا المعتقل السيئ الصيت، فالشهادات الشفوية للنساء تترك في نفس الباحث الانطباع أن هناك أحداث رويت وأحداث أخرى لا تُحكى إلا في مجالسهن الخاصة. كما أن المؤسف أن السلطات الفرنسية فككت المعتقل بعد غلقه، فلم تترك لنا آثارا مادية يمكن من خلالها استجلاء بعض المعلومات الدقيقة حول حياة الاعتقال.

المصادر و المراجع:

1-الطاهري، مولاي أحمد، (2010)، نسيم النفحات من أخبار توات، بدون، الجزائر، بدون.

2-تواتي دحمان وآخرون، (2004)، الثورة التحريرية في أقاليم توات 1956-1962، ب. ت، الجزائر، منشورات جمعية مولاي سليمان بن علي.

3-عبد العزيز أحمد، ب. ت، من صميم الثورة الجزائرية، ب. م، الجزائر، دار رحاب للنشر.

الدوريات والرسائل:

4 - خثير صافي، (2011). النضال السياسي والعمل الثوري في إقليم توات، رسالة ماجستير في التاريخ، غير منشورة، (تخصص تاريخ)، جامعة بشار، الجزائر.

الشهادات:

6- أجرادي بو الأنوار، (29 مارس2008). قصر قدور.

7- بوسعيد حدة ، (13 مارس 2008)، أجدير الغربي.

8- بضياف، فاطمة، 29 يناير (2008)، زاوية الدباغ.

9- المير، فاطمة (14 مارس 2008)، أجدير الغربي.

10- عيشاوي، الخادم، (29 يناير 2008). زاوية الدباغ.

11- الشولي، أحميدة، (14 مارس 2008)، أجدير الغربي.